مجلة العاصمة

المجلد الثالث، ٢٠١١

مجلة مسجلة لدى المسجل للجرائد في الهند (RNI) برقم **KERARA00011**
ومجلة معتمدة لدى جامعة كيرلا، الهند

قسم العربية، كلية الجامعة، ترونتبرم، كيرالا، الهند، ٦٩٥٠٣٤

جهود القدامى في تيسير النحو: ابن مضاء القرطبي أنموذجا

د/ أحمد بن بالقاسم جعفري

أستاذ محاضر ورئيس قسم اللغة العربية، الجامعة الإفريقية، أدرار، الجزائر

مقدمة

منذ أن اشتد عود النحو العربي على يد سيبويه، ومن جاء بعده بقرون قليلة، أحس جيل من علماء العربية بضرورة تبسيط بعض أصول هذا العلم، ومضامينه، رغبة في تيسير معانيه للمعلمين والمتعلمين من أبناء العربية وغيرهم، وتخليصا له مما علق به من شوائب المتكلمين والمناطقة، فجاءت جملة من المؤلفات والشروح بداية تحمل عناوين في هذا الإطار:(الواضح، شرح، تلقين المتعلم، الضروري في صناعة النحو، التسهيل، التوضيح، التقريب، الإيضاح، وغيرها) وفي ذلك كتب خلف الأحمر (ت. ١٨٠ هـ)، "مقدمة في النحو" وكتب الكسائي (ت. ١٩٨ هـ) كتابه "مختصر في النحو"، ويضاف إلى هذا جمل الزجاجي (ت. ٣٣٧ هـ)، ولمع ابن جني (ت. ٣٩٢ هـ)وغيرها. لكن ذلك كله لم يكن كافيا ليقف أمام بعض عوائق فهم هذا العلم فضلا عن ممارسته التطبيقية وهو ما دفع ابن مضاء القرطبي(ت. ٥٩٢هـ) في القرن السادس الهجري ليخرج بدعوته الجريئة في رده على النحاة قاصدا أولا كما قال: "أن يحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه وينبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه"([1]). فكانت دعوته بذلك أهم محاولة اتصفت بمبدأ التيسير والإصلاح من ناحية، ومناقشة الأصول والمبادئ النظرية التي وضعتها البصرة من ناحية أخرى، ونقدها وفق أصول نظرية جديدة كما يقول النقاد. وقد حركت دعوة القرطبي تلك أقلام العديد من المهتمين بمجال البحث في الدرس النحوي. فما كاد الكتاب ليخرج إلى النور سنة ١٩٤٧م بتحقيق وعناية د/ شوقي ضيف حتى تحركت أقلام الحملة التيسيرية في النحو العربي دعما مع مبررات واقعية، أو رفضا بأدلة تاريخية، وبلغت مداها في العصر الحديث حد التجريح والتعريض أحيانا بالنحو والنحاة معا فهذا د/ شوقي ضيف مثلا يعزي عجز العربي وقصوره في لغته إلى "النحو الذي يقدم للناشئة، والذي يرهقها بكثرة أبوابه وتفريعاته"([2]) وذاك د/ إبراهيم مصطفي يرمي النحويين بأنهم جنوا على النحو، إذ ضيقوا حدوده، وسلكوا به طريقا منحرفا إلى غاية قاصرة، وضيعوا كثيرا من أحكام الكلام وأسرار تأليف العبارة([3]).

وبمرور الأيام أخذت هذه الأفكار والنظريات الجديدة في النحو العربي في التبلور تدريجيا وخرج أصحابها من عتبة النصح والنقد إلى باب التأليف والنشر ومعه ظهرت عشرات الكتب والمقالات في هذا الباب انطلاقا دائما من محاولة ابن مضاء إذ أنه وبغض النظر عن كتاب رفاعة الطهطاوي سنة ١٨٧٣: التحفة المكتبية في تقريب اللغة العربية، ومقال د/ جرجس الخوري الذي كتبه سنة ١٩٠٤ م في مجلة "المقتطف" بعنوان: "العربية وتسهيل قواعدها". وكتاب د/ إبراهيم مصطفى (إحياء النحو) الذي كتبه سنة ١٩٣٧ وموضوع د/ حسن الشريف في مجلة الهلال سنة ١٩٣٨م بعنوان: تبسيط قواعد اللغة العربية. فإنه وفي السنة نفسها التي حُقق فيها كتاب ابن مضاء (١٩٤٧) ألف د/ عبد المتعال كتابا بعنوان : النحو الجديد، وبعده كتب د/ محمد أحمد برانق كتابه النحو المنهجي. وفي سنة ١٩٥٨م كتب د/ إبراهيم أنيس موضوعا لمجلة مجمع اللغة العربية بعنوان: رأي في الإعراب بالحركات، وهي المجلة نفسها التي كتب فيها د/ طه حسين سنة ١٩٥٩ م موضوعه مشكلة الإعراب. وفي سنة١٩٦١م ألف د/ أمين الخولي كتابه: منهج تجديد في النحو والبلاغة

---

[1] الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ص٧٦ ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، ط/٢ ، دار المعارف، مصر

[2] تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده، شوقي ضيف، ص ٣ وما بعدها، ط٢ ، دار المعارف، مصر

[3] إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، ص ٣، ط ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، دار الآفاق العربية، القاهرة

والتفسير والأدب. وفي منتصف السبعينات كتب د/ محمد شوقي أمين مقالين لمجلة مجمع اللغة العربية سنتي ٧٦/٧٥. الأول هو: قول في النحو، والثاني هو قول في الإعراب ثم أتبع بمقال آخر في نفس السنة والمجلة للدكتور أحمد علم الدين الجندي بعنوان: في الإعراب ومشكلاته. وفي سنة ١٩٨١، كتب د/ محمد ابراهيم البنا كتابه: الإعراب ومستقبل لغة التخاطب، وبعده بسنتين أخرج د/ عبد الستار الجواري كتابه: نحو التيسير دراسة ونقد منهجي. وبعد هذا التاريخ ازدادت وتيرة الكتابة في هذا الحقل، فكان أن كتب فيه د/ عبد الوارث مبروك كتابه: في إصلاح النحو العربي دراسة نقدية، ود/ مهدي المخزومي كتابيه: في النحو العربي نقد وتوجيه، وفي النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث، كما كتب د/ حسن عون كتابه: تطوير الدرس النحوي، ود/ حسن عباس كتابه: اللغة والنحو في القديم والحديث. وفي الجزائر([1]) تقدم الأستاذ محمد صاري بقسم اللغة العربية وآدابها جامعة باجي مختار عنابة برسالة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في ٢٩/ماي/٢٠٠٣ وكان عنوانها: محاولات تيسير تعليم النحو قديما وحديثا في ضوء علم تدريس اللغات. هذا بالإضافة إلى عشرات المقترحات التي قدمت للملتقيات والندوات المنعقدة في هذا الإطار هنا وهناك نذكر منها([2]):

مقترحات لجنة وزارة المعارف المصرية المقدمة سنة ١٩٣٨م، وقرارات مؤتمر مجمع اللغة العربية لسنة ١٩٤٥م، وندوة معالجة تيسير النحو العربي المنعقدة بالجزائر عام ١٩٧٥م، وقرارات مؤتمر مجمع اللغة العربية لسنة ١٩٧٩م، وملتقى: التعريب وتيسير النحو، الموسم الثقافي الثاني(١٩٨٤) لمجمع اللغة العربية الأردن([3])، وملتقى: تيسير اكتساب العربية، الموسم الثقافي السادس عشر(١٩٩٨) لمجمع اللغة العربية الأردن، وملتقى النحو العربي الواقع والآفاق، جامعة ابن خلدون تيارت الجزائر، ماي .٢٠٠٥

وبين هؤلاء الأعلام وعشرات الأبحاث والدراسات برز المرحوم د/ شوقي ضيف - ومنذ الأربعينات- كرائد للنزعة التيسيرية في النحو العربي حديثا وذلك بما قدمه من جهود جبارة ومقترحات واقعية في هذا الباب تُوجت في معظمها بمباركة ومصادقة مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٧٩/١٩٧٧م، ثم ما لبثت أن تحولت الفكرة والمقترحات إلى كتب مستقلة حملت في طياتها عصارة الآراء والتجارب البناءة نذكر منها: مقدمة تحقيق كتاب الرد على النحاة سنة ١٩٤٧م كتاب تجديد النحو، كتاب تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا سنة ١٩٨٦م، كتاب تيسيرات لغوية سنة ١٩٩٠م، وأخيرا كتاب تحريفات العامية للفصحى في القواعد والبنيات والحروف والحركات سنة ١٩٩٤م. وكان من الممكن ألا نسمع بخبر لشوقي ضيف وغيره من الأسماء في هذا الباب تحديدا لولا اطلاع شوقي ضيف على مخطوط ابن مضاء القرطبي (٥٩٢هـ) (الرد على النحاة)، ووقوفه على تحقيقه لأول مرة. ولا أدل على ذلك من كثرة البحوث والدراسات حول الكتاب ونظرياته من جهة وحول العملية التيسيرية بعامة من جهة أخرى التي أعقبت هذا التحقيق مباشرة وهذا باعتراف المحقق نفسه الذي يقول: "وبمجرد أن نشرت الكتاب في سنة ١٩٤٧م أثار ضجة كبيرة في البيئات العلمية، فألقى عنه أستاذي المرحوم د/ طه حسين كلمة في مجمع اللغة العربية، وكتب عنه المرحوم الشيخ محمد علي النجار غير مقالة في مجلة الأزهر، واتخذه غير طالب في الجامعات المصرية موضوعا لرسالة الماجستير أو الدكتوراه، وتردد ذكره في كتابات الباحثين والدارسين من عرب ومستشرقين"([4]).

وبالنظر إلى كل هذا الاهتمام الذي عني به كتاب "الرد على النحاة" وتكملة – كما قلت - لموضوع مقالنا السابق حول جهود د/ شوقي ضيف في تيسير النحو آثارنا هذه المرة في مشاركتنا الاخوة القائمين على هذا اليوم الدراسي الوقوف

---

[1] رسالة الجامعة، مجلة جامعة باجي مختار عنابة، الجزائر، ص/٠٣، العدد ٠٩ ، جوان ٢٠٠٣

[2] تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده، شوقي ضيف، ص ٣٢ وما بعدها، ط٢ ، دار المعارف، مصر، ومجمع اللغة العربة الأردن (www.majma.org.jo) ومجمع اللغة العربية القاهرة www.arabicacademy.org.eg

[3] وفي هذا الملتقى قدم شوقي ضيف محاضرة بعنوان: محاولات تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا

[4] مقدمة كتاب الرد على النحات لابن مضاء القرطبي، ص٠٤

بهذه الجهود عند نقطة البداية التحولية في مسار تجديد أو تيسير النحو وأعني بها هنا دون شك كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي.

أحمد بن عبد الرحمان القرطبي وكتابه الرد على النحاة:

والبداية هي من حياة الرجل و مسيرته التعليمية([١]) حيث إن اسمه الكامل هو أحمد بن عبد الرحمان بن محمد بن سعيد بن حريث بن عاصم بن مضاء اللخمي، ولد بقرطبة سنة ثلاثة عشرة وخمسمائة وبها نشأ، قرأ كتاب سيبويه على ابن الرماك في اشبيلية، كما أخذ عن القاضي عياض في سبتة. كان ابن مضاء متوقد الذكاء شاعرا بارعا وكاتبا مفيدا، واسع الرواية مقرئا مجودا ومحدثا مكثرا توفي بأشبيلية في السابع عشر من شهر جمادي الأولى على الأرجح سنة اثنين وتسعين وخمسمائة. من مؤلفاته: المشرق في النحو (وقد ضبطها د/ شوقي ضيف بفتح الميم)([٢])، تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان([٣])، ثم كتابه الرد على النحاة. ورغم أننا لم نطلع على محتويات الكتابين السابقين بسبب ضياعهما إلا أن المتأمل لعنوانهما وما كتب في الرد عليهما قديما من جهة، والمتصفح لكتابه الثالث الرد على النحاة من جهة أخرى يستطيع أن يتلمس جليا مظاهر ثورة ابن مضاء القرطبي على النحو والنحاة معا إذ أنه وفي هذا الكتاب الأخير حاول ابن مضاء وضع نموذج جديد لوصف اللغة العربية والتقعيد لها وفق أصول ومبادئ فكرية وفلسفية تختلف اختلافا جذريا عن تلك التي وضعتها البصرة، وذلك مع اعترافه بقيمتها والهدف من وضعها، حيث يقول: "إني رأيت النحويين انتهوا إلى المطلوب الذي اتبعوا، إلا أنهم التزموا ما لا يلزمهم، وتجاوزوا فيها القدر الكافي فيما أرادوا منها، فتوعرت مسالكها ووهنت مبانيها، وانحطت عن رتبة الإقناع حججها "([٤]).

ويعتقد د/ شوقي ضيف أن عصر الموحدين الذي ألف فيه كتاب الرد على النحاة كان عصر ثورة على المشرق وأوضاعه عامة([٥])، ويربط ذلك بما صدر في عهد يعقوب بن يوسف الذي أمر بعدم تقليد أئمة المشرق و عود ة العلماء إلى الأصول القرآن والسنة من جهة، وبما جاء في كتاب ابن مضاء من رد على نحاة المشرق من جهة أخرى وهو ما جعله يشك في كون الرجل على رأس الظاهريين المنظرين لهذه الثورة الموحدية عامة. وإذا تدرجنا مع ابن مضاء في دعوته وجدناه من البداية يضعها في باب النصح لدين الله وتغير المنكر، وهو ما يتطلب التعامل بمبدإ الشكر حال الموافقة في الرأي أو حال الوارع عند الإشكال، أو حال الناقد الموضح عند الخلاف([٦]). وبعد هذه الافتتاحية راح الكاتب يعرض أسبابه ودوافعه في هذا التأليف والمتمثلة أساسا في قوله: "قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه". وقد شرح موقفه هذا ومثل له بأكثر من شاهد ومثال. والكاتب على ما يبدو وهو يستعرض مجمل آرائه في هذا الكتاب لم تكن صورة رد الفعل لدى نحاة العراق وغيرهم وموقفهم السلبي منه ومن دعوته هته تغيب عنه ، ولذلك راح من البداية يتصور ردة الفعل السلبية ويرد عنها في الوقت نفسه حيث قال: "ولعل قائلا يقول: أيها الأندلسي المسرور بالإجراء بالخلاء (من قول العرب كل مجر في الخلاء يُسر) المضاهي بنفسه، الحفي ذكاء وأي ذكاء، أتزاحم بغير عود، وتكاثر برذاذك

---

١ ينظر بغية الوعاة، السيوطي، ج١، ص ٣٢٣ وما بعدها، ط ٢، ١٩٧٩م، دار الفكر، وكتاب الرد على النحاة، ص ١٨

٢ الكتاب كما يقول شوقي ضيف لم يصل إلينا ومع ذلك لست أدري ما هي علة الدكتور في فتح الميم، ينظر كتاب الرد ص ٢٠

٣ يقول السيوطي أن ابن خروف عارض هذا الكتاب بكتاب بعنوان (تنزيه أئمة النحو مما نسب إليهم) ويضيف السيوطي أنه لما بلغ الأمر إلى مسامع ابن مضاء قال: (نحن لا نبالي بالكباش النّطّاحة وتعارضنا أبناء الخرفان). ينظر البغية ج١، ص ٣٢٣

٤ الرد على النحاة، ص ٧٢

٥ المصدر السابق (المقدمة)

٦ المصدر السابق، ص ٧٢

الجَود.....أتزري بنحو العراق وفضل العراق على الآفاق، كفضل الشمس في الإشراق على الهلال في المحاق وإنك أخمل من بقة في شقة وأخفى من تبنة في لبنة"([1]). ثم نجده يرد على صاحب هذا القول بتحد أكبر ناعتا أياه بشتى أنواع النعوت فيقول مخاطبا إياه: "إن كنت أعمى لا تنهض إلا بقائد، ولا تعرف الزائف من الخالص إلا بناقد فليس هذا بعشك فادرجي.... وإن كنت من ذوي الاستبراء في محل الاستبراء، فانظر يتبين لك السقيم من الصحيح"([2]).

والبداية من نظرية العامل التي أراد ابن مضاء أن يلغيها إلغاء من البداية حيث قال: "وقصدي من هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي وأن الرفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم في قولنا (ضرب زيد عمرا) أن الرفع الذي في زيد والنصب الذي في عمرو إنما أحدثه ضرب"([3]). ونرى المؤلف وهو يعرض لهذه الآراء يستشهد بما جاء في خلافها كرأي ابن جني الذي يرى "أن العمل من الرفع والنصب والجر والجزم، إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره"([4]). ويذهب ابن مضاء بعيدا في بلورة خطته في هدم هذه النظرية حينما يفصل القول في اعتراضه على العوامل المحذوفة والتي قسمها النحاة كما قال إلى ثلاثة أقسام محذوف لا يتم الكلام إلا به، حذف لعلم المخاطب به كقولك لمن رأيته يعطي الناس: زيدا أي أعط زيدا....والثاني محذوف لا حاجة بالقول إليه بل هو تام دونه، وإن ظهر كان عيبا كقولك (أزيدا ضربته) فالنحاة هنا يقدرون عاملا محذوفا عمل النصب في زيد. وهنا يحمل ابن مضاء على النحاة كثيرا ويتعجب قائلا" ويا ليت شعري ما الذي يضمرونه في قولهم (أزيدا مررت بغلامه). وأما في القسم الثالث من العوامل المحذوفة وهو الذي رأى فيه شدة العجب لأن العامل فيه مضمر إذا أظهر تغير الكلام عما كان عليه قبل إظهاره مثل قولك:(يا عبد الله) في المناديات عامة التي هي منصوبة عند النحاة كما قال بفعل مضمر تقديره أدعو.

الخاتمة

وأخيرا نقول أن جميع هذه الأفكار كانت بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس إذ أنه وبمجرد أن أخرجت هذه الدعوة إلى النور حتى توالت الكتابات الداعية إلى ضرورة التجديد في النحو وتيسيره مع متطلبات العصر، وقد جاءت هذه الدعوات متباينة في الطرح، انطلق فيها البعض من حاجة اللغة العربية إلى ما يحفظ لها مكانتها وهيبتها وسط عولمة ثقافية شاملة، وبالغ فيها البعض الآخر حد مطالبته بسقوط سيبويه كما فعل مؤخرا الكاتب المصري شريف الشوباشي في كتاب صدر له عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر ويحمل عنوان (لتحيى اللغة العربية.. يسقط سيبويه). ونحن لا نملك إلا أن نقول للكاتب ولمن يسير على دربه في هذه الدعوة: لم لا تحي العربية ويحي معها سيبويه؟

المصادر والمراجع :

١. إحياء النحو لإبراهيم مصطفى، ص ٣، ط ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، دار الآفاق العربية، القاهرة
٢. بغية الوعاة، السيوطي، ط ٠٢ /١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، دار الفكر
٣. تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده، د/ شوقي ضيف، ط٢ ، دار المعارف، مصر
٤. الخصائص لابن جني، تحقيق الشيخ محمد علي النجار، ج١ ، ص ١٠٩، دار الكتب المصرية
٥. الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، تحقيق د/ شوقي ضيف، ط/٢ ، دار المعارف، مصر

المجلات ومواقع الانترنت:

٦. رسالة الجامعة، مجلة جامعة باجي مختار عنابة، الجزائر، ص/٠٣، العدد ٠٩، جوان ٢٠٠٣
٧. مجمع اللغة العربة الأردن **www.majma.org.jo**
٨. مجمع اللغة العربية القاهرة **www.arabicacademy.org.eg**

[1] المصدر السابق، ص ٧٤
[2] المصدر السابق، ص٧٥
[3] المصدر السابق
[4] الخصائص لابن جني، تحقيق الشيخ محمد علي النجار، ج١، ص ١٠٩، دار الكتب المصرية